نهضة الصين الفكرية

هي الاصل فى ثورتها السياسية

طرف من آثار أدبائها ومفكريها فى ثوراتها الأخيرة

ملخصة

عن روبرت ميريل بارتلت

أستاذ الفلسفة الغربية فى جامعة برلين ومؤلف كتاب الفكر العصرى

سارت مع الثورة الصينية السياسية جنباً إلى جنب، ثورات أشد خطراً وأكثر أهمية فى ثقافة الصين وآدابها على حد سواء.

والحق أن تلك البلاد الشاسعة المترامية الاطراف لم تنجب قائداً حربياً واحداً ممتازا . . كما أنه لم يبرز فيها من الساسة العباقرة إلا الدكتور « صن يات صن » الوطنية ، الذى استطاع أن يوفق بين تعاليم كونفشيوس القديمة ومقتضيات هذا العصر، فبث فى قومه روحا تواقة إلى المعالى والتحرر من رق العبودية والنوم والكسل، تلك الصفات التى كان الشعب الصينى من ضحاياها . . فلا شبهة إذن فى أن مفكري الصين ومتأدبيها هم العامل الاكبر فى ثورتها الهائلة التى مازال مستعرة

على أن هذا ليس معناه أن ثورة الصين قامت بمجرد القلم واللسان ولم يصحبها استعمال القوة وأراقة الدماء . كلا ، وإنما نود أن نقول إن حملة الاقلام كانوا طلائع الثورة الدموية . . وهاك طرف من آثار هؤلاء الادباء والمفكرين تبين لك خطر هذه الفئة التى انجبها الشرق

* * *

لديك الأستاذ « لياتج شى ـ شاو » أكتب كتاب الصين والملقب بأبى الاصلاح الدستورى وقد ارتبى سنه الآن على الستين واضعه فى رأس قائمة المصلحين بأسنة الاقلام ، وكفاه فخراً أنه تلميذ فيلسوف الصين الاكبر « كانج يو ـ وي » وقد اشترك لياتج مع أستاذه فى قيادة حركة المطالبة بالاصلاح فى سنة ١٨٩٨ وهى الحركة التى

عارضها بغباء عاهل الصين إذ ذاك، فأمر بابعادهما بغير ما روية ولا تبصر حتى أدى ذلك إلى التهاب حماسة ليانج، فأصبح من أنصار الثورة بعد أن كان مذهبه التدرج فى الاصلاح المنشود بالوسائل السلمية

كذلك كان « ليانج شى - شاو » أول من أنشأ جريدة يومية فى الصين (بكين) فضلا عن اشتراكه فى تحرير كثير من المجلات الأسبوعية والدورية مثل « الرأى السياسى » و « العدالة » و « هسين ون » وغيرها . وقد طاف فى منفاه ببلاد عديدة فى العالمين القديم والحديث (أوروبا وأميركا) كما زار اليابان وغيرها من بلاد الشرق .... وهو لا يفتأ أين حل وأنى رحل ينشر الدعوة لأمته وينفث روح الجهاد وحب الحرية والمعالى فى نفوس أبنائها . ولم يعد إلى الصين إلا فى سنة ١٩١١ حين دعته الحكومة التى تألفت عقب ثورة البوكسر ليشترك فى وضع النظام الذى تسير عليه ، وما هى إلا أن تألف حزب التقدم (ين شاو - هسى) حتى انتخب رئيساً له ، وتولى فى الوزارة التي ألفت آنذاك عدة وزارات

ولعل أظهر المواقف لبسطة نفوذه وعلو مكانته لدى قومه ، موقفه فى رفض الاحد وعشرين مطلباً التى وجهتها حكومة اليابان إلى حكومة الصين فى سنة ١٩١٥ فأيده الشعب برمته فى موقفه رغم التهديدات الخطيرة التى اشتملت عليها المذكرة اليابانية إذا لم تجب مطالبها ، ولكنها تراجعت أمام ذلك الموقف الاجماعى الحازم مما زاد فى مكانة ليانج حتى استطاع أن يحصل على تأييد الشعب له مرة ثانية فى أحرج المواقف فى سنة ١٩١٧ التى دخلت فيها الصين الحرب العالمية منضمة إلى الحلفاء

وقبل أن نعرض عليك طرفاً من آثار هذا الزعيم العظيم . لا نرى بدأ من أن نشير إلى أنه معدود الآن من غلاة المحافظين ، وقد كان قبلا فى عداد الثوريين المهيجين!! وما ذلك إلا لأن الأيام قد خلفته وراءها فأصبح مهيج الأمس - بعد تحقيق مطالبه السياسية أو القسم الأكبر منها على الأقل - يدين بالاعتدال فى السياسة ، مطالباً باصلاح داخلية البلاد على أساس انتشار التعليم على أن يسير ذلك سيراً طبيعياً دون لجوء إلى طفرة المذهب الشيوعى التى يميل اليها حزب الأغلبية (الكومنتانج) .. ولكن مواطنيه ما زالوا - رغم عقيدته السياسة - يرون فيه أحد زعماء النهضة الفكرية الحديثة كما يقرون له بالفضل فى تعضيد عدد كبير من الناشئة النابهة ، وإن

اختلفوا معه فى الرأى السياسى ، ولايستطيع أحد أن ينكر عليه أسلوبه الصينى الجميل وسعيه إلى الاصلاح أنى وجد إلى ذلك سبيلا

وليس فى الصين من لم يقرأ كتابه « ين بنج - شيه » الذى يجمع بين دفتيه أبحاثاً قل أن تجتمع فى كتاب واحد من كتب الغرب ، فهو يشتمل على مقالات فى السياسة والاجتماع والآداب وكل شىء ! ! ومما ورد فيه تحت عنوان « الثورة والاصلاح » :

(الثورة هى القانون الطبيعى لرقى العالم و اصلاحه . و الاصلاح يجب أن يبدأ بالشعب وليس بالموظفين (يعنى الحكومة) و يجب علينا اذن أن لا ننتظر الاصلاح يأتينا على أيدى هؤلاء وانما نبدؤه بأنفسنا لننقذها . وليس ثم ما يمنعنا عن النجاح فى تغيير حالتنا الحاضرة بأحسن منها مادمنا نريد ذلك . على أنه ليست السياسة وحدها هى التى تحتاج إلى إصلاح . وانما نحن فى أشد الحاجة إلى رفع مستوى كل الجماعات والهيئات و لا سبيل إلى تحقيق هذا إلا ببذل الجهود صادقة مخلصة)

وقال فى موضوع بعنوان « تعليم الشعب هو أول ما تحتاج اليه الصين » :

(ان الصين فى موقف خطير جدا الآن بسبب عدم انتشار التعليم الالزامى . انا نحكم أنفسنا بانفسنا الآن وهذا بلاشك مصدر خصيب لنمو قوة الأمة ولكن كثيرين من شبابنا قلقون على مستقبل الصين ، ويخيل لهم اننا نعانى ازمة سياسية شديدة . وفى الحق انه من العبث أن نصرف كل اهتمامنا نحو المسائل السياسية وحدها دون أن نعبأ بأصلاح الأساس وهو الأمة . ان الاستعمار (الاقتصادى) متغلغل فى كافة أنحاء بلادنا . . اليس هذا دليل على أن الصين ينقصها اصلاح شؤونها الداخلية ؟)

هذه هى الروح التى يدأب ليانج على بثها و تعهدها بالكتابة والخطابة و القاء المحاضرات ، وهو يدين بالعقيدة البوذية ، أديب اكثر منه عالماً ، وقد بسط الاستاذ « ليانج شو-منج » مؤلف كتاب « الفلسفة والثقافة فى الشرق والغرب » رأيه فى أهم العوامل فى نهضة الصين الفكرية فقال : « هى كتابات ليانج شى- شاو قبل الثورة ، ومجلة الشباب الحديثة ، لاسيما كتابات رئيس تحريرها تشن تو - سيو بعدها » (أى بعد الثورة)

وتشن تو ـ سيو هذا جدير بلقب زعيم الاشتراكيين المتطرفين (الراديكاليين) أنشأ المجلة المشار اليها فى سنة ١٩١٥ وأمكنه ـ إذهو عميد كلية الآداب فى جامعة بكين الاهلية ـ أن يجمع حوله طائفة من المصلحين تضافروا فيما بينهم على رفع المستوى الأدبى والفكرى (العلمى) والسياسى (الثورى) فى بلادهم . وبالرغم من تقدم هذا الزعيم فى السن فانه مايزال جم النشاط الثورى ، مخالفا فى هذا صنوه شى ـ شاو ، إذ هو يجدد معارض للثقافة القديمة . ومن أقواله المأثورة :

(التعاليم الكونفشيوسية يجب أن تبيد ، فماهذه التقاليد السخيفة والافكار الجامدة إلا قيود يجب أن تكسر . دماراً أيتها الأوهام ، وهدماً أيتها الاصنام ، اخلعوا ذلك الاسلوب القديم فى الكتابة وانبذوا معه طريقة التفكير العتيقة واطلبوا العلم والقوة المادية)

وجاء كذلك فى كتابه « موضوعات مختارة » تحت عنوان « تحطيم الاصنام » مايلى :

(هل لى أن أسألكم لماذا يجب علينا أن نحطم الاصنام؟ هناك أشخاص كثيرون وأشياء كثيرة لافائدة منهم وهم الى ذلك يلقون من احترام العبادة والتقديس مالقى الأصنام . إن الشىء الذى لافائدة فيه ، بغض النظر عن نصيبه من الاحترام ، يجب أن يحطم ويدمر . ان الآلهة والشياطين فى السماء أو فى الارض لم يثبت يقينا انها حقيقية . وتلك الدعاوى الدينية إن هى إلا كالاصنام فى خداع البشر . كذلك العبارات الاخرى من أمثال « هو ذا رب الارباب » و « يسوع المخلص » و « امبراطور السماء » إن هى إلا عبارات وهمية تغش الناس بمدلولاتها حتى كانوا فى الازمان السالفة يعتقدون ان الملك هو ابن السماء وكانوا يقدسونه ويعبدونه ويعتقدون بفضله وقوته على سائر أهل المملكة . وقد مهدت هذه الفكرة للملوك طريق حكم بلادهم حكما مطلقاً استبداديا ، على أن الملوك والبراطرة لايستطيعون أن يأتوا بالمعجزات ، وليس لهم من عماد أو سند إلا قوة الشعب ، وها كم الامبراطور « يوني » عاهل الصين السابق ونيقولا قيصر روسيا أصبحا بعد خلعهما عن عرشيهما أشد حاجة الى الرحمة والأشفاق من أى من سائر الأفراد .)

وقال فى كلمة أخرى فى الموضوع ذاته

(اخلعوا نير الأوهام والعبادات الخرافية . ان العقائد القديمة بزخرفها والسياسة العتيقة والآداب البائدة ، كلها أصنام لا طائل تحتها ويجب أن يقضى عليها . لأننا لا نستطيع الجمع بين الحقائق التى يدين بها أهل هذا العصر وبين تلك المعبودات)

وكتب عن « النهضة الأدبية » فقال :

(ثلاث قواعد جديرة بأن تكتب فوق علم نهضتنا : الأولى أن ننبذ الأدب المتأنق المغالى الهيل ، ونحل محله الأدب البسيط المنسجم اى الأدب الشعبى ، والثانية ستبدل الأدب القديم المسرف ، بالأدب الجديد الصادق الواقعى ، والثالثة أن نهجر الأسلوب المعقد الملتوى الذى يقصد منه عرض مقدرة الكاتب ووفرة اطلاعه إلى ذلك الأسلوب البسيط العادى الاجتماعى الخالى من التكلف ... إن المدنية الأوروبية لم تقم على السياسة والعلم وحدهما ، ولكنها مليئة بالأدب الرائع ، وإنى أحب روسو وزولا وكانت وباكون وداروين وكثيرين ممن لا يتسع مقال كهذا لذكرهم جميعا . هل لدينا هنا فى الصين فرد واحد فى عظمة واحد من هؤلاء؟ انى لست أخشى أن أصرح بأنى إذا وجدت من لا يحترم شرفه وسمعته بانضمامه إلى صف أولئك الشياطين الثمانية عشر — يقصد المفكرين المعارضين لاصلاح الآداب وتطورها — فانى مستعد أن أسحب أضخم مدفع وأتقدم فى الطليعة لمحاربة هؤلاء الأعداء)

وقد أبدى الاستاذ تشن رأيه فى الجدل الذى قام أخيراً بين « العلوم وفلسفة الحياة » أن العلم مقدم على الميتافيزيقا ، وقد أبدى هذا الرأي فى مقدمة كتابه « الموضوعات المختارة » حيث قال :

(لقد قسم « كونت » تقدم المجتمع الانسانى إلى ثلاث مراحل ، ونحن (الصينيين) مازال فى مرحلة الاعتقاد بالخرافات الدينية : أليس أغلبنا مايزال يؤمن بالسحر وبالطوالع (البخت) وغيرها من السخافات ؟ كذلك تجد بين المتعلمين من يؤمن بالميتافيزيقا)

وذكر فى موضع آخر من الكتاب ذاته :

(لقد أبدى بعضهم أن الصين محتاجة إلى قوى ثلاث ، روح روسية ، وعلم

ألمانى ، ورأس مال أميركى . ولكنى أقول أننا لسنا بحاجة إلى أموال الأميركيين وإنما نحن محتاجون للجمع بين الروح الروسية والعلوم الألمانية . ومما يؤسف له أن الناس فى هذا العصر يرحبون بالثروة الاميركية ، ولكنهم لا يحفلون بالعلوم الالمانية ، كما أن الروح الروسية تدخل الرعب فى قلوبهم)

* * *

ويتفق مع « تشن تو - سيو » فى العقيدة والنزعة الفكرية مؤلف قدير ومادى مشهور هو « ووتشيه - هوى » الاشتراكى المتطرف ، وبالرغم من كبر سنه فانه هو الآخر فى طليعة المصلحين الثوريين حتى ليحسب أحياناً فى عداد الفوضويين ، وقد لبث زمناً طويلا منفياً بسبب عقيدته ، وقد ألبسته ديمقراطيته واستقامته فى الحياة احتراماً كبيراً ، واليك ترجمة مختصرة لحياته من قلمه قال

(إننى الآن فى الستين من عمرى ، وقد كنت فى السابعة حين أعلن امبراطور اليابان عزمه على إصلاح امبراطوريته ، وكنت قد بدأت إذ ذاك أتعلم الحروف (الكتابة) الصينية وأحفظ الكتب الاربعة (المقدسة) والخمسة المنتخبات الادبية القديمة Classics وأشحن ذهنى بالمقطوعات المشهورة . فلما بلغت العشرين بدأت أهتم بدراسة النقد وأصبحت من أشد المعجبين بمتأدبى أسرة « هان » واتجهت مطامعى إلى كتابة فصول فى النقد إذ كنت أجد المجال فسيحاً أمامى فى أحوال الصين وتقاليدها . ولقد كتبت إذ ذاك عدة مقالات مهيجة ضد الكنائس الاجنبية وحرضت الناس على حرقها ، وكنت أعارض فكرة الجمهورية استناداً إلى التعاليم القديمة ، وكان الرأى عندى أن الامبراطورية (البلاد) الواسعة لا غنى لها عن ملك ... وفى الثلاثين من عمرى حضرت إلى بكين لتأدية الامتحان ولكنى سقطت . وكنت إذ ذاك أقيم مع طالب ناجح هو « وانج ينج - ميان » فزارنا يوماً « تشانج تشين » تلميذ رئيس الوزارة فى ذاك الوقت « ونج تسينج - هو » وأخبرنا أن مفكرى الصين وقادة نهضتها قرروا تأييد رئيس الوزارة فى موقفه الذى قرر فيه اعلان الحرب على اليابانيين الاقزام . وبعد أشهر قليلة أذاع الامبراطور نطقاً سامياً أمر فيه « بضرب العدو الضربة القاضية » . وكان الناس يعتقدون وقتئذ أنه لن تمضى

أيام قلائل حتى تسحق الجزر اليابانية الثلاث عن آخرها . ولكن أخبار الحرب جعلت تتوالى من سيء الى أسوأ ، وبعد أربعة أشهر قطعت رأس القائد الصيني الذى خسر المعركة على حدود منشوريا . فى ذلك الوقت قدم « كانج يو - وى » مذكرته المشهورة الى الامبراطور ونشر « لياج شى - شاو » قائمة الكتب الاجنبية التي يجدر بالناشئة الصينية مطالعتها ودراستها فما وجدت خيرا من أن أسير فى ركاب هذين الرجلين العظيمين ... والآن ! اليس من دواعى الأسف اننا بعد مضى ثلاثين سنة على هذا الحادث الجلل مايزال تعليمنا صوريا وصناعتنا كما هى لم ترتق ولم تتقدم والاصلاحات التى نحن فى أشد الحاجة الى اجرائها ماتزال فى المهد ؟ نرى الاجانب يحملون من عندنا التماثيل الصينية والمقالات الادبية القديمة من تاج ذلك العقل البالى ولايزالون ينقبون بين الأوحال كأنما فى ذلك الماضى يجدون الطعام المقدس !! وهاانذا الآن ما أزال مضطرا لان أكتب مقالات مثل التى كان « لياج شى - شاو » يكتبها منذ ثلاثين سنة !! أواه أيها الشرق المريض ، حقا يظهر أن مرضك مستعصى الشفاء !)

والمستر « وو » من أشد معارضى شاعر الهند الاكبر وفيلسوفها المشهور طاغور ، وهو لم يتحرج عن نقده نقدا مرا لاذعا خلال زيارة الشاعر الهندى لبكين ، والحق ان « وو » له أسلوب خاص فى الكتابة يمزج فيه اللغة الفصحى باللغة العامية وتتخلل كتاباته لذعات حادة فى كثير من الجرأة والصراحة . من ذلك حملته العنيفة على « تشانج تشون - داى » زعيم المدافعين عن النظرية الروحية فى « الجدل بين العلم وفلسفة الحياة » فقد سماه هو وانصاره « طواغير (جمع طاغور) الهند » . والمستر « وو » مؤلف قسم فى هذا الباب أطلق عليه (نظرية جديدة فى خلق العالم وفلسفة الحياة) جاء فيه بآراء طريفة وأنكر فيه وجود الله مؤيدا الرأى القائل بأن الاساس المادى أقرب الى التصديق من الاساس الروحى وختم تلك الرسالة بأعلان أن عقيدته انما هى الفلسفة الفوضوية . « كل انسان يعمل مايستطيع ويحصل على مايريد » . وهو الى هذا وذاك متفائل بالحياة بدليل ماجاء فى احدى كتاباته حيث قال . « سألنى أحدهم : هل أصبحت متشائما ؟ وهل قعدت عن العمل ؟ الحق انى قعدت عن العمل زمنا ما ، ولكنك لن تجد ابدا كلمة التشاؤم فى قاموس « وشى - هوى الفلسفى »

ولن تكون دراسة الصين المعاصرة كاملة من غير اشارة الى (المرحوم) الدكتور

صن يات صن واضع كتاب « النظريات الشعبية الثلاث » الذى أكسبه لقب « ابو الجمهورية الصينية » و مؤسس أول حزب سياسى فى تاريخ الجمهورية

ولقد كان الكثيرون من زعماء الاشتراكيين المتطرفين (الراديكاليين) أصدقاء للدكتور صن فتأثروا بتعاليمه حتى أن لينين شاو ، ولو أنه يميل الى مبادئ حزب الشعب ونظرياته ، يقود حزب التقدم الاشتراكى غير المتطرف

أما « ووتشى هوى » فأنه كان ملازما للدكتور صن أثناء اقامته فى لندن وقد وضعا أثناء اقامتهما فيها الخطط اللازمة لنهضة بلادهما ولهبا فيها نار الثورة

وهناك كثيرون غير هؤلاء كانوا محيطين بالدكتور صن وقد كان هؤلاء صفوة متعلمى الصين ومتأدبيها وهم الذين اذكوا نار النهضة فى بلادهم وان كانت قد ذهبت تلك الوثبة بارواح كثيرين من أخوانهم ، إلا أنها ايقظت الباقين بعد ان كان الجميع فى سبات عميق . . الموت أفضل منه

وبالرغم من أن حزب الشعب قد انقسم الى نصفين أحدهما شيوعى والآخر وطني ، فان شخصية الدكتور صن مانزال مرفرفة على القسمين . و يهتدى أفراد كل منهما بضوئها

ولنقرب شخصية الدكتور صن و أثرها فى الصين الى ذهن القارىء العربى نقول انه عندهم قد يكون أجل من سعد باشا فى مصر ، لو أن فى الاجلال تفاوت ! - فآلاف من صغار الطلبة فى الصين يقرأون كل يوم وصيته الأخيرة لقومه ، تلك الوصية التى يكادون يقدسونها فى الصين ، لولا أن الحركة الفكرية هناك تحاول ابعاد الناس عن فكرة التقديس والعبادة على أنواعها . . . . هي حركة تحرير الفكر . وآلاف من الموظفين والمشتغلين بالسياسة وبنهضة بلادهم مايزالون يطالعون الى اليوم البرنامج الذى وضعه صن يات صن للسير بمقتضاه . . أضف الى هذا ان اثنتى عشرة جامعة فى الصين تحمل اسمه

ولم يكن الدكتور صن سياسيا محترفا ، بل إنه ترك مهنته فى الطب واشتغل بالصحافة وكان ثوريا وكان فاتحا بوتوبياً .

ومن حضروا الدكتور صن وتأثروا ببيئته ، لو سن ، زعيم القصصيين الصينيين وأحد أعمدة حركة الثقافة الحديثة فى الصين ، واسمه هذا مستعار يوقع به على كتاباته ولكن اسمه الحقيقى ، تشو شو - جن ، وقد قضى عشر سنوات يتلقى العلم فى اليابان وبدا ميله للطب ولكنه كان يقضى جزءا كبيرا من وقته يطالع الادب الروسى وغيره ، وكان يرافقه أخيه ، تشو تسو - جن ، وهو الآن معدود أقدر كتاب الصين الناثرين قاطبة ، وقد تعاون الاخوان فى ترجمة كثير من القصص الروسية والبولونية وغيرها من قصص بعض ممالك جنوبى أوربا ، وكان ذلك أثناء دراستهما فى اليابان ثم عاد الاخوان الى بلادهما وقد وهبا نفسيهما للادب ، وانصرف ، لوسن ، عن الطب - كما انصرف قبله تشيكوف وشنيتزلر Schnitzler واوليفر وندل هولمز - لغزو ميادين الادب ، ومع أنه مايزال فى الثامنة والاربعين من عمره الآن ، فأنه يعتبر سيد الكتاب الصينيين المعاصرين فى الادب الواقعى لاسيما القصة (الصغيرة)

وهو متأثر جدا التأثر بالادب الروسى الى حد أنه قال ، لقد وجدت فى ثقافة روسيا مالم أجده فى سواها ، والحق ان هناك علاقة عاطفية بين الصين وروسيا ، ورابطة طبيعية لتوافق مزاجيهما ، وان أحب الكتاب الى هو تشيكوف ، كما أحب أيضا جوجول وتورجنيف ودستويفسكى وجوركى وتولستوى واندريف ونيتشه وشيلر ، ولقد ترجم من الادب الروسى فى الصين أكثر مما ترجم من اية لغة أخرى ، وهذا راجع الى تلاؤم الظروف السياسية والروحية فى البلادين ، اذ ان الصين تواجه نفس العقبات الاجتماعية التى يوجه القصصى ذهنه وقلبه للقضاء عليها . ، ثم قال ، وقد يكون المستر لبانج شى - شاو يخاف الروسيا . أما أنا فلا ،

ولا يكاد عدد من مجلة الشباب الحديث الصينية يخلو من قصة للوسن ، وقد بدأ ينشر هذه القصص منذ سنة ١٩١٨ ، وكان يكتبها تحت عنوان ، مذكرات مجنون ، ، وقصصه تحمل بين طياتها روحا من العطف والحنان تذكر قارئها بدستويفسكى ومكسيم غوركى . وبما قاله عنه رومين رولاند القصصى الانجليزى الكبير ، هذا نوع من الفن الواقعى المفعم بالسخرية اللاذعة والتهكم الحار . ولن يفارق مخيلتى ابدا ذلك الوجه العابس المتألم الذى صوره هذا الكاتب فى قصته التى عرض فيها فلاحا صينيا جاهلا تعذر تفهيمه معنى الثورة فى سبيل انهاض بلاده .

ومن أقواله . « إن الكونفشيوسية والبوذية قد ماتتا ولن تقوم لهما بعد اليوم قائمة . ليس هناك إله ، العلم والاخلاق وحدهما يكفيان . إن الصينيين ليسوا متدينين بطبيعتهم ، وانما هم مصابون بداء الكسل . وستقف الحروب (الداخلية) عندما يهون للعمل (تأمل !) . . ولن يلبث مرض الصين أن يشفى إذا ما تفشى فيها العمل والعلم »

. . .

والشاعر الفصحى « كومه ـ جه » مثال آخر من أمثلة رجال الثورة المتأدبين وقد تلقى هو الاخر علومه الآبتدائية فى اليابان ـ ولا يخفى أن اليابان مشربة بالروح الغربية ـ ولم يلبث أن أصبح من الكتاب المبتكرين ، وشاعراً ثورياً ذرب اللسان وهو يشترك مع طائفة من أقرانه فى تحرير مجلة « الفيضان » وغيرها من الصحف لاشتراكية المتطرفة ، ومن مقال له بعنوان « ضمير الفنان » يقول

(لقد امتدحنى البعض و ذمنى آخرون بشأن المقالات الاجتماعية التى كتبتها اخيرا فى مجلة الفيضان . ويقول خصومى ـ أنت معروف بأنك أديب ، ويكفى الأديب أن يجول فى الشعر و القصص ما شاء له أدبه ، وانما لا يجدر به أن يناقش النظريات الاجتماعية . . و الظاهر من هذا أنهم يريدون حرمان الاديب من طرق ميدان من ميادين الفكر . وليس لى ما أرد به على هؤلاء إلا أن أقول لهم إن كلينمصوكان مؤلفاً روائياً و يرودون الفوضوى كان فى أول عهده شاعراً . . ويبدى فريق آخر أسفه على أنى لم تظهر لى قصص ولا شىء من النظم منذ بدأت أوجه همى نحو المسائل الاجتماعية ، و يؤيد هذا الفريق حقه فى الاسف بأن خروجى من صفوف الادباء خسارة فادحة ! ! إنى أشكرهم على هذا المديح . . وأطمئنهم بأن ليست هناك أدنى خسارة . ولكنما أقول للاولين أنه لم يحدث فى أية أمة أن قال أحد للادباء لا تكتبوا فى المسائل الاجتماعية ! ! إن النشاط الفكرى للانسان لا يمكن حده وقصره على ناحية دون أخرى . . ولا شك أن لكل أديب مثلا أعلا فى الاخلاق والجمال والعاطفة والذكاء يعمل لتحقيقه ، فليس هناك إذن ما يمنع الفنان من أن يصول و يجول فى كل ميدان من ميادين الفكر مستر شداً بالهامه ومهتدياً بمثله الأعلى . . إن العالم

ليس به أحد مثل روبنصن كروزو يعتزل الدنيا بما فيها ليعيش فى جزيرة مهجورة قاحلة !! والانسان لا يستطيع إلا أن يحتك بغيره ويتأثر بالروح الاجتماعية حتى يتابعها بنشاطه ، إذ يجب أن يكون هناك تلاؤم بين العمل و بين الشخص أو الهيئة التى يراد بها أن تنتفع من نتائج هذا العمل ، على أن الفن ذاته هو نتاج العصر والبيئة . فالشعراء الذين ماتوا قبل اختراع السينما لم يكن فى استطاعتهم أن يصفوها متأثرين بالمناظر التى تعرضها مثل الشعراء الذين عاشوا فى زمنها . . فكيف إذن يستطيع الكاتب أن يمتنع عن الخوض فى المسائل الاجتماعية التي يعيش فى كنفها ؟

ثم إن الفنانين من وجهة النظر الوصفية ، يستطيعون تشخيص الادواء الاجتماعية أكثر من غيرهم ، لأن حسهم أدق من حس الرجل العادى ، وهم أول من يشعر بآلام المظلومين وآناتهم ، ويتيرون الطريق للاصلاح ، بل إن تقدم الفن نذير الثورة — أو بشيرها ؟ — والثورة الفرنسية ذاتها قدقامت على أسس الآداب الايطالية وعلى تعاليم روسو وفولتير ، وثورة العمال العالمية خلقها كارل ماركس وقد كان شاعراً فى شبابه ، كما أن لينين وتروتسكى زعيما الثورة العالمية ليسا إلا أدبيين)

* * *

وفى زعماء النهضة الفكرية فى الصين من هم فى عداد الشبان ، مثل « هو شى » وهو دكتور فى الفلسفة من جامعة كولمبيا ، وبالرغم من حداثة سنه فانه ذو نفوذ كبير لا سيما بين أوساط الطلبة ، وله مؤلف قيم باللغة الانجليزية بعنوان « وصف الأسلوب المنطقى فى الفن » An Outline of the Logical method in China دل فيه على علو كعبه فى الثقافة الغربية ، وهو الآن معدود أكبر مستغرب (على وزن مستشرق) فى الصين ، وقد وضع عدة روايات أدبية تعد من مفاخر هذا العصر ، وطبق النقد التاريخى على فلسفة الأديان فى موضوعات جمة بأسلوب جميل رشيق ، كما عمل على ترقية اللغة الوطنية بأن كتب أشعارا بلغة وسط بين العامية وبين الفصحى ، وعرف قومه بكثير من فلاسفة الغرب وكتابه حتى أصبح حجة فيما اختص به ، وهو يصدر الفينة بعد الفينة كتباً صغيرة سهلة المأخذ واضحة العبارة أسماها « رسائل هوشى » يرمي بها إلى نشر المعرفة والآراء الحديثة ، ومن بين تلك

الرسائل واحدة بعنوان « معنى التجديد Renaissance » كتبها عام ١٩١٩ جاء فيه

(يقول تشن تو - سيو إن التجديد الأدبى العلمى يدعم الديموقراطية وينشر الروح العلمية . فلأجل أن ندعم الديموقراطية يجب علينا أن نعارض الكونفشيوسية والتقاليد والعادات القديمة ، ولأجل أن ننشر العلم ونوره لا بد لنا أن نحارب الفن القديم والعقائد القديمة والآداب العتيقة والثقافة القومية البالية

(وهذا ولو أنه واضح جلى إلا أنه ليس بمنطقى . لنفرض أن سائلا ألقى علينا هذا السؤال - لماذا تريد أن ننشر العلوم وندعم الديموقراطية ، ونعارض الثقافة والآداب القوميتين ؟ لاريب أن الجواب على ذلك هو أن الثقافة والآداب القوميتين مضادتان للعلوم والديموقراطية . وهناك سؤال آخر - كيف السبيل إلى مقاومة المعاهد والهيئات المخالفة لهذا المذهب ؟ وهذا فى الحق سؤال ليس من السهل الاجابة عليه . والرأى عندى أن المعنى الصحيح لاحياء العلوم هو توجيهها نحو اتجاه جديد وخلق روح جديدة ، سمها روح النقد إذا شئت ، وروح النقد هذه هى اعادة النظر فيما هو حسن وفيما هو غير حسن

(فأولا يجب علينا البحث فى العادات الموروثة . هل هى تبرر بقاءها ؟ ثانياً - هل آراء الحكماء الأقدمين ماتزال صحيحة إلى اليوم ؟ ثالثاً - هل تلك المعتقدات السخيفة التى تسيطر على عقول أغلبية الجماهير تقوم على أساس ؟ هل يجدر بنا أن نسير على نهج أسلافنا وتقاليدهم ؟ أم هل هناك أشياء جديدة تعود علينا بربح أكثر ؟

(قال نيتشه - « فى هذا العصر قد حان وقت تصفية جميع الاشياء النفيسة وتمييزها على بعضها » . وهذا هو التفسير الدقيق لعبارة « الروح النقدية » . لقد كان نساؤنا يضعن القيود فى أقدامهن ليحتفظن بصغر حجمها مبالغة فى تجميلها ، ولكننا أصبحنا الآن نستنكر هذه العادة القديمة الفظيعة . . ومنذ عشر سنوات (أى قبل سنة ١٩١٠) كان الضيف اذ ينزل على قوم يقدمون له الأفيون الذى حرمت شرائع هذا العصر تعاطيه . كذلك كان « كانج يو - وى » قبل عشرين سنة من أنصار حزب التقدم ، وهو الآن من المحافظين . فهل غير كانج يو - وى أى شىء فى نفسه ؟ كلا ، وانما الشعب هو الذى غير آراءه ، وهذا هو الذى اسميه تصفية الاشياء النفيسة وتمييزها على بعضها)

وجاء فى مقال آخر له بعنوان « نظرنا الى المدنية الغربية الحديثة » ونشر فى يوليو سنة ١٩٢٦

(يقول بعض الناس فى هذه الايام بآراء لاتقوم على أدنى أساس فضلاعما تنفثه من سموم فى أفكار الجمهور إذ يزعمون أن المدنية الغربية تقوم على المادة وحدها بينما تقوم مدنية الشرق على الروح، و ينفذون من تلك السبيل الى وصم المدنية الغربية بأشنع الصفات ، و الأشادة باحترام المدنية الشرقية . . . ان روح المدنية الغربية تمتاز بأنها تعترف الى أقصى حدود الاعتراف باهمية التمتع بالمادة ، وعلى ماأرى تقوم المدنية الغربية على ثلاث قواعد رئيسية أولا - ان الغرض من الحياة هو البحث عن السعادة ، ثانيا — ان الفقر يكون خطأ بناء على ذلك ، وثالثا — ان اعتلال الصحة خطأ كذلك

(صحيح ان النظرة السطحية فى الفنون و العلوم والقوانين الغربية قد توحى الى الناظر وتظهره على اشياء كثيرة ظالمة غاشمة مخربة فى تلك المدنية ، ولكننا مع ذلك لانستطيع إلا ان نسلم بأن الروح الحقيقية لها انما هى اسعاد البشر وزيادة نفاسة الحياة وقيمتها . ولنتساءل الآن — هل صحيح ان هذه المدنية التى تعمل لرفع مستوى الحياة قد أهملت حاجات النفس والعقل ؟ هل هى فى الحقيقة مدنية مادية صرفة ؟ ليكن جوابنا على هذين السؤالين فى جرأة . كلا ، ان المدنية الغربية لاتهمل بأى حال حاجات النفس البشرية ، بل هى قادرة على اشباع نفس الانسان وعقله إلى حد لم تحلم به المدنية الشرقية فى أى عصر من العصور . فأن هذه تحث على الرضى بما هو مقسوم ، وتنادى بفضيلة الفقر ، وسبيلها لارضاء السماء (الله) هو عدم الاعتراض والمقاومة ، والصبر على الاذى ، بينما الأخرى تبث تعاليم عدم الرضى بالمقسوم ، ولا بالفقر ، والرغبة عن احتمال الأذى ، وتناحر البقاء ، وهى أبدا ترمى الى تقدم النوع البشرى وتحسين أحواله . وبينما تسمع الشرقى يقول - « هكذا اراد الحظ » تجد الغربى يقول - « ان التفاوت فى الغنى والفقر يرجع أثره الى البيئة والنشأة ، فأذا كانت البيئات رديئة فأنه يمكن اصلاحها »

(والغربيون أبدا فى نزاع . ليس فى سبيل السلطان والمال ، وانما هم يحاربون فى سبيل الحرية والاخاء والعدالة . والتناحر على البقاء الذى تثيره مدنيتهم ليس تناحرا يقصد به الى مصلحة الأفراد ، وانما يرمى إلى ايصال الخير الى اكبر عدد ممكن من المجتمع . وبديهى انه لا يمكنك ايصال الخير الى الناس بالجلوس متربعا مرددا اسم بوذا !! بل يجب عليك ان تعمل بجهد غير كليل و لامايل لتصل الى ذلك

(والآن ياإخوانى — اى المدنيتين صادفت هوى فى قلوبكم ؟)